زكي نجيب محمود ونهضة الوطن العربي

أ. الطاهر لقوس علي(*)

مقدمة

لقد وجه معظم المفكرين العرب المعاصرين اهتمامهم إلى النهضة العربية الحديثة، وما شهدته من إخفاقات، محاولين إيجاد السبيل للخروج من تلك الإخفاقات للنهوض بالأمة العربية، فانقسموا إلى اتجاهين. يرى الاتجاه الأول أن الحل يكمن في العودة إلى التراث أو الثقافة الموروثة بتفحصها ونقدها وجعلها نقطة الانطلاق نحو التقدم والنهضة.

وفي مقابل هذا، كان اتجاه آخر رأى رأيا مناقضاً لنظرة الاتجاه الأول واعتبر أن مسألة النهضة لا تكون بالعودة إلى ما مضى، بل تكون باستحداث بديل للدخول في الحداثة وبلوغ ما بلغته الدول المتقدمة، وذلك بالتوجه إلى علوم الغرب وثقافته. لقد كان زكي نجيب محمود واحداً من هؤلاء الذين وجهوا عيونهم صوب الفكر الأوروبي عامة والفكر العلمي خاصة ممثلاً في الوضعية المنطقية والتي أسماها بالتجريبية العلمية. فكان أبرز ممثلي هذا التيار في الفكر العربي المعاصر، إذ عرض أفكارها وتبناها وحاول تطبيقها في حياته الفكرية. وفي هذا الصدد يقول: «ومذهبي الفلسفي فرع من فروع المذهب التجريبي، يمكن تسميته بالوضعية المنطقية أو التجريبية العلمية» (المنطق الوضعي، المقدمة، ص ج).

سنحاول من خلال هذه المداخلة المتواضعة أن نكشف بالتحليل والنقد عن المشروع الفكري لمفكرنا زكي نجيب محمود من خلال الإجابة على التساؤلات التالية: هل استطاع زكي نجيب محمود أن يقدم مشروعاً نهضوياً؟ هل نهضة الأمة العربية تكمن في مسايرة العصر (الغرب) أم في العودة إلى التراث أم أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالمواءمة بين الفكر الوافد من الغرب وبين تراثنا العربي الإسلامي؟

(*) جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف - الجزائر؛ البريد الإلكتروني:taharlakouesali@yahoo.fr.

لقد اختلف معظم المفكرين والمهتمين بحياة زكي نجيب محمود، حول المراحل التي مرت بها حياته الفكرية، إذ يرى عزمي إسلام أن حياة زكي نجيب محمود الفكرية، مرت بخمسة مراحل. وذلك استنادا لما ذهب إليه زكي نجيب محمود في حديثه عن العقود الخمسة في كتابه «قصة عقل»[١]. أما الدكتور حسن حنفي فيذهب إلى أن حياة زكي نجيب محمود تنقسم إلى مرحلتين الأولى مرحلة المنطق الوضعي والثانية مرحلة تجديد الفكر العربي، وهو التقسيم الثنائي الذي نجده عند أغلب الباحثين المهتمين بفكر زكي نجيب محمود، معتبرين في ذلك ما أقره هو نفسه من تقسيم لحياته الفكرية في مقدمة كتابته تجديد الفكر العربي حيث ظل كما يقول طيلة حياته الفكرية مهتما بتراث الفكر الغربي ودارسته الفلسفية المعاصرة معتقدا أن ليس هناك فكر إنساني سواه مهملا كل الإهمال التراث العربي الإسلامي وقضاياه إلى نهاية الستينات حيث بدأ الاهتمام بهذا التراث مكتشفا أبعاده الإنسانية[٢]. وهناك من قسم حياة زكي نجيب محمود الفكرية إلى ثلاثة مراحل كما ذهب إلى ذلك إمام عبد الفتاح إمام واصفا المرحلة الأولى بمرحلة التدين الخالص أو المبكر، والمرحلة الثانية مرحلة العقل الخالص، وهي تبدو نقيضاً للمرحلة الأولى، والمرحلة الثالثة هي مرحلة التدين المستنير بضوء العقل.

١- الدعوة إلى ثقافة الغرب

لقد ثار زكي نجيب محمود على الأوضاع الفكرية والعلمية والقيم السائدة في مصر خاصة وفي الوطن العربي عامة، وهذا ما عبر عنه بقوله «إنه لم يكن أعنف من ثورتي على «القيم» كما هي قائمة في بلادنا، إلا ثورتي على حياتنا العلمية حتى ذلك الحين - أعني أعوام الأربعينيات - منقسمة قسمين. أحدهما يحاول أن يتشبه بالحياة العلمية الحديثة، لكنه يكتفي بالشكل الخارجي دون الجوهر - الذي هو منهج النظر والفكر. لأنه إذا لم تتغير طريقة النظر، فقد يحدث - وهو بالفعل كثيراً جداً ما يحدث - أن يكون العالم عالماً بما «يحفظه» من مادة تخصصه، وأما فيما هو خارج حدود التخصص من مواقف الحياة وشؤونها، فيظل على النظرة نفسها التي ينظر بها من لم يتعلم أحرف الهجاء. والقسم الثاني من حياتنا العلمية عندئذ وقف وقفة رافضة للتحديث

(١) انظر زكي نجيب محمود، قصة عقل، دار الشروق، بيروت، ط١ ١٩٨٣، ص ٠٨.

(٢) زكي نجيب محمود تجديد الفكر العربي دار الشروق بيروت ط٥ ١٩٧٨ ص ٥-٦.

مضموناً ومنهجاً، إنه لم يحاول حتى أن يتظاهر بالشكل العلمي الحديث في مواد البحث، بل تمسك بالقديم مظهراً ومخبراً»[١].

لقد أدرك زكي نجيب محمود في تلك الحقبة من السنين سر النهضة العلمية التي نشأت في أوروبا إبان القرن السادس عشر. فتولد عنها العلم الحديث والحضارة الحديثة بأسرها. وهو نفسه السر الذي لم ينكشف لنا حتى اليوم انكشافاً كاملاً، فتلكأت بنا النهضة. ولبثنا نواصل شيئاً من العصور الوسطى في عصرنا الحديث وما ذلك السر العظيم إلا منهج جديد يحل محل منهج قديم، فبدل أن نقيم حلول مشكلاتنا على أقوال نستخرجها من الكتب القديمة، نقيمها على تحليلات دقيقة لعناصر المشكلات المراد حلها، لكي نصل إلى الطريقة الفعالة التي تحلها... فمحور النهضة العلمية في أوروبا هو استبدالها بالمنهج القياسي الذي وضع أرسطو تفصيلاته، منهجاً استقرائياً جديداً كان فرنسيس بيكون أول من وضع له المبادئ والقواعد[٢].

لذلك يعتقد زكي نجيب محمود أن سر تخلفنا العلمي كامن في «المنهج»، فبينما يتميز العالم المتقدم باصطناعه للمنهج التجريبي في كشفه للجديد -أولا- وفي معالجته لما يعترض حياته من مشكلات -ثانياً- كنا في مصر - وما نزال حتى اليوم إلى حد كبير - نصطنع منهج القرون الوسطى. الذي هو الارتكاز على ما ورد في الكتب القديمة في استخراج أحكامنا على الأشخاص والأشياء والمواقف[٣].

لقد تبلور فكر زكي نجيب محمود - عند عودته إلى مصر- بفكرتين أساسيتين عمل على تجسيدهما لإرساء نهضة عربية. إحداهما وجوب الأخذ بروح الثقافة الأوروبية المعاصرة، آملا أن تنتهي بنا هذه الثقافة إلى نفس الوضع الذي وصلت إليه أوروبا من وضع الإنسان الفرد، الذي وصل إلى مكانة التقديس. أما الفكرة الثانية تتمثل في وجوب الدعوة إلى التجربة العلمية، معتبراً إياها ضرورة للفكر العربي، لأنها الأداة أو المنهج الوحيد لضبط اللفظ في مجال التفكير العلمي.

كان منطقي - منذ الأربعينيات فصاعداً- في وجوب الأخذ عن ثقافة الغرب منطقاً مبسطاً لا تعقيد فيه ولا التواء. فما دمت قد رأيت البون شاسعاً بيننا وبينهم في الحفاظ على حقوق الإنسان وكرامته. وفي تقدم العلوم والفنون، وفي درجة الثراء والرخاء ونظافة العيش وغربة

(١) زكي نجيب محمود، قصة عقل، ص٤٠-٤١.
(٢) المصدر السابق، ص٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧-٤٨.

الإحساس بالحياة، فلماذا لا ننقل إلى أرضنا مثل هذه الشجرة الفينانة المورقة المثمرة لعلنا نفيئ إلى ظلها ونأكل من ثمارها[١].

من هنا جاءت دعوة زكي نجيب محمود إلى الأخذ الصارم بالنظرة العلمية التجريبية. معتبراً أن طابع عصرنا الفكري، هو العلم التجريبي وما يترتب عليه من مناهج للبحث والنظر، والفلسفة التي نشأت من ذلك الاتجاه العلمي، هي الفلسفة الوضعية، وجوهرها أن تجعل صدق الحواس أصلاً لا يناقش.

وعن الأسباب التي دفعت زكي نجيب محمود للدعوة إلى ثقافة العصر يقول: لم تكن دعوتي إلى ثقافة الغرب صيحة مجنونة مفتونة بظواهر كاذبة. بل هي دعوة دفعني إليها ما رأيته من مكانة رفيعة للإنسان- كل إنسان، وأي إنسان- من حيث إنه إنسان وكفى. فعندئذ قارنت- رغم أنفي- بين ما رأيته هناك، وما كنت أعلمه من قيمة الإنسان في ثقافتنا المصرية كيف تعلو وتهبط مع درجات السلطة والنفوذ والثراء ونوع العمل. فهل كان يمكن أن أرى ذلك الفارق الشاسع بين الثقافتين. وما أنتجه ذلك الفارق من معايير يقاس بها الناس هناك وهنا. دون أن أبحث عن السر. لأدعو إلى الأخذ بكل ما من شأنه أن يكسب الإنسان كرامته؟ وبكل ما من شأنه كذلك أن يدفع بالناس إلى الأمام في شوط الحضارة[٢].

أ- الوضعية المنطقية:

ليس غايتنا هنا عرض أفكار الوضعية المنطقية وفلسفتها عند زكي نجيب محمود، بل ما يهمنا هو الغاية من تبنيه لهذه الفلسفة منهجاً ووجهة نظر لمختلف المشكلات الفكرية العربية.

لقد كان زكي نجيب محمود واحداً من هؤلاء الذين وجهوا عيونهم صوب الفكر الأوروبي عامة والفكر العلمي خاصة ممثلاً في الوضعية المنطقية والتي أسماها بالتجريبية العلمية. فكان أبرز ممثلي هذا التيار في الفكر العربي المعاصر، إذ عرض أفكارها وتبناها وحاول تطبيقها في حياته الفكرية. وفي هذا الصدد يقول: «ومذهبي الفلسفي فرع من فروع المذهب التجريبي، يمكن تسميته بالوضعية المنطقية أو التجريبية العلمية»[٣].

---

(١) زكي نجيب محمود، قصة عقل، ص ٧٣.

(٢) زكي نجيب محمود، قصة عقل، ص٨٤-٨٥.

(٣) زكي نجيب محمود، المنطق الوضعي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية-القاهرة، ط٣، ج١، ١٩٦١، المقدمة، ص ب.

يرى زكي نجيب محمود أن هذا المذهب الفلسفي-الوضعية المنطقية - جدير بالاهتمام، وأنه المذهب الذي يمكن أن يصلح كطريقة في مجتمعنا، وفي فكرنا المعاصر، لأنه أكثر المذاهب مسايرة للروح العلمي. وفي هذا يقول في كتابه «المنطق الوضعي»: «أنا مؤمن بالعلم، كافر بهذا اللغو الذي لا يجدي على أصحابه ولا على الناس شيئاً، وعندي أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية - يكثر أو يقل - بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه... ولما كان المذهب الوضعي بصفة عامة، والوضعي المنطقي بصفة خاصة، هو أقرب المذاهب الفكرية مسايرة للروح العلمي، كما يفهمه العلماء الذين يخلقون لنا أسباب الحضارة في معاملهم، فقد أخذت به أخذ الواثق بصدق دعواه، وطفقت أنظر بمنظاره إلى شتى الدراسات، فأمحو منها - لنفسي - ما تقتضي مبادئ المذهب أن أمحوه»[١].

وبذلك كان زكي نجيب محمود، من أهم المفكرين الداعين للأخذ بالمذهب الوضعي المنطقي، الذي يعود في أصله إلى المنهج التجريبي، الذي مثله في القرن السابع عشر والثامن عشر كل من «جون لوك» و«دافيد هيوم».

لذلك رأى زكي نجيب محمود أنه من الضروري الاعتماد على المنهج التجريبي في مجال الفكر والعلم على حد سواء، فإذا التزم المفكر بهذا المنهج اتجه إلى تحليل أفكاره ليرى، هل لها أساس في الواقع أم أنها من مجال العبارات الميتافزيقية؟. ومن هنا كانت دعوة زكي نجيب محمود إلى العلم ومناهجه وراح يطبق هذا على كل المجالات بدءًا من الفلسفة، رافضاً للميتافزيقا.

لاشك أن هناك أسباب عديدة دفعت بزكي نجيب محمود لتبني الوضعية المنطقية خاصة وثقافة وعلوم الغرب عموماً، غير أن السبب الرئيس في ذلك هو شعوره بنقص المنهج العلمي والذهنية العلمية في مصر خاصة والوطن العربي عامة، وما شاهده في مصر مقارنة ببريطانيا، من ذهنية خرافية وزيف وفساد في الأخلاق في مختلف ميادين الحياة. فهو يقول: «في أواخر الأربعينيات وأوائل الستينيات، أو قل: إلى آخر الخمسينيات. فعندئذ تصورت أمامي صورتين: إحداهما الصورة الحضارية التي رأيتها في أوروبا، وأوروبا - كما قلت - هي في عيني إذ ذاك هي «العصر»، وأما الصورة الأخرى فهي ما عرفته عن بني وطني. فكما يتمنى الوالد لولده الكمال، ويؤذيه غاية الإيذاء أن يلمح فيه شيئاً من النقص حتى ولو كان تافها يسيراً، وربما ضربه وأغلظ له في التأنيب بسبب حبه له.»[٢]

(١) المصدر السابق، ص ج.

(٢) زكي نجيب محمود، قصة عقل، ص٦٢- ٦٣.

لهذا السبب وغيره، وهو كثير، أراد زكي نجيب محمود، في ذلك الوقت بالذات نشر أفكار الوضعية المنطقية، نظراً لما رأى فيها من الجد والصرامة العقلية، لإزالة ما انغرس من التفكير غير العلمي في الحياة الثقافية والعلمية والعملية. وهو يقول عن سيرته الفكرية والعقلية في هذه المرحلة: «لقد سرت في خلاله على خطين متوازيين: أحدهما الدعوة إلى ثقافة العصر، والأخر الدعوة إلى منهج التجريبية العلمية في صياغة الأفكار.»[١] لذلك كانت الغاية في الخمسينيات هي إشاعة نور العقل والدعوة إلى السير على هداه، فهو في نظر زكي نجيب محمود، الغائب الأكبر في حياتنا الثقافية التي اعتلت وطغى عليها منطق الوجدان.

ب- الفلسفة تحليل:

لقد ذهبت المدرسة الوضعية المنطقية إلى التأكيد على أن الفلسفة تحليل، وأن مهمة الفيلسوف هي توضيح الأفكار التي يقولها العلماء، والتي يتناولها الناس في حياتهم اليومية، وهذا ما أخذ به زكي نجيب محمود وأكده في معظم مؤلفاته «وبهذا كان للفلسفة مجال واحد وليس لها سواه وهو تحليل الألفاظ والعبارات تحليلا منطقياً، لتمييز ما يمكن قبوله، من أصناف القول وما لا يمكن قبوله»[٢].

يرى زكي نجيب محمود أن مهمة الفلسفة تتغير حسب تطور حياة الإنسان العملية عبر العصور، لأن الفلسفة تعبر كما يقول: «عما تنطوي عليه تلك الحياة في عصرها من مبادئ أساسية يسير الناس في نشاطهم العملي على مقتضاها، شعروا بذلك أو لم يشعروا.

لذلك كان على الفلسفة في هذا العصر أن تجعل غايتها التحليل المنطقي، وذلك لما يقوله العلماء، إذ أصبحت الفلسفة منهجا وليست مذهباً، منهجها التحليل الذي يرد الفروع إلى جذوعها، ويرد الجذوع إلى الجذور، وذلك في ميادين العلم وغير العلم من مقومات الحياة الثقافية.

وهكذا حدثت الثورة في الفلسفة، فلم يعد الفيلسوف كسابقه يعمل جاهداً على وصف الوجود، وعلى تجاوز الطبيعة إلى ماورائها، وعلى بناء ذلك النسق الذي يسعُ كل شيئ. لقد بقي للفيلسوف عملاً واحداً، الذي يتمثل في تحليل الكلام بغية توضيح معناه» وإذا سألتني ما الفلسفة، باختصار قلت إنها توضيح المعاني والألفاظ»[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(٢) زكي نجيب محمود، قشور ولباب، ص ٢٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

بهذه الصورة تحددت مهمة الفلسفة في نظر زكي نجيب محمود، بتحليل ما تقدمه العلوم من قضايا أساسية، تحليلا يكشف عن الجذور الأولية التي منها تنبت هذه الفكرة العلمية، فالفلسفة عنده «طريقة في البحث بغير الموضوع، إنها لا تبحث في مسائل لتصل إلى نتائج، لأنه ليست هناك مسائل فلسفية مما تختص به هي، دون أن يكون خاضعاً للبحث في مجالات العلوم المختلفة...»[١].

٢- العودة إلى التراث: التراث والحداثة

لقد جاءت معظم كتب زكي نجيب محمود، ممجدة للعقل وقيمه، نافية لأي دور فاعل للعواطف والوجدان في تقدم الحضارة الإنسانية أو في إحداث أي نهضة فكرية، فقد وجد، بعد تمعن في أهم خاصية ميزت أهم الحضارات التي عرفتها الإنسانية، أن القاسم المشترك في جميع هذه الحضارات هو الاحتكام إلى العقل[٢].

يقول: «منذ حملت القلم كاتباً في صدر الشباب..أدركت فوق ذلك أن العربي بصفة عامة (والمصري عربي) أشد ميلا بحكم ثقافته إلى العبارة المثيرة للوجدان، منه إلى العبارة المستندة إلى عقل، وأدركت فوق هذا وذلك أن في مقدمة الإصلاح - إذا أردنا إصلاحا- أن نربي الأجيال الجديدة على وقفة أخرى، يفرق لنفسه فيها تفرقة واضحة بين ما هو عام فيحيله إلى العقل وأدواته، وما هو خاص فلا بأس عندئذ في الركون إلى لغة الشعور»[٣].

ولأن مشكلتنا هي، كما يبين زكي نجيب محمود، في جوهرها مشكلة المنهج العلمي، والمنهج العلمي هو في النهاية النظرة العقلانية للأشياء، فإن القناعة التي تخللت تفكيره طوال حياته الفكرية، وكتاباته على اختلاف موضوعاتها هي «أن الفرد الإنساني مسؤول عما يفعل، وأن هذه المسؤولية لا تعني شيئاً إذا لم يكن العقل وحده هو مدار الحكم في كل المسائل التي نطلب فيها التفرقة بين الصواب والخطأ»[٤].

وهي القناعة التي جعلته يرى الناس في مجتمعه المصري والعربي عموماً، في غير وفاق مع العقل وأحكامه، ومن ثم في غير وفاق مع الحداثة والتقدم، أو مع الحضارة.

---

(١) زكي نجيب محمود، قصة نفس ، دار الشروق، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ص١٧٨.

(٢) زكي نجيب محمود، ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، بيروت، ط٣، ١٩٨٢، ص ١٩٦.

(٣) زكي نجيب محمود، قصة عقل، ص ١٢١.

(٤) زكي نجيب محمود، مجتمع جديد أو الكارثة، دار الشروق، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ص ٢٦.

لذلك حملت كتاباته، منذ البداية، دعوة حداثية صريحة غايتها «تنوير العقول»، في المجتمع المصري والمجتمعات العربية، بل دعوة إلى الثورة على ما يسود المجتمعات العربية. ولقد بنى دعوته هذه على أساس الأخذ بأسباب الثقافة العصرية كما يسميها، على إيمان له بمبدأ ثقافي مؤداه: أن الثقافة تتغير من عصر إلى عصر وحسب حاجات كل عصر، وفي هذا المعنى يقول: «إنني أدعو إلى ثقافة تساير العصر فذلك لعلمي بأن الثقافة قد تغيرت معانيها مع تعاقب العصور، وليست هي كالعنصر من عناصر الكيمياء يظل ذا صفة مميزة، فلا يتغير مع الزمن ولا يتبدل، فما كان شرطاً ضرورياً للمثقف في مرحلة معينة، لم يعد كذلك في مراحل أخرى جاءت بعد ذلك.»(١)

إن زكي نجيب محمود الذي ظل طوال حياته يدعو إلى الفكر الغربي، حتى ظن بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه، أخذته في أعوامه الأخيرة ومنذ الستينات صحوة قلقة، مفادها» أن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة، ليست هي: كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغي لنا أن نزيد... وإنما المشكلة على الحقيقة هي: كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها؟»(٢).

لقد أدرك زكي نجيب محمود أن الحياة الإنسانية لا يكفيها العقل وحده فقط، بل هناك جوانب أخرى مخصصة للعواطف أو الوجدان، وهذه الجوانب لا تتدخل في ميادين العقل. ومن هذا الإدراك انتقل اهتمامه من فكرة الدفاع عن العقل فقط إلى فكرة الجمع بين العقل والوجدان. وذلك من خلال عدة أبعاد، أولاها الثقافة الإنسانية العامة: إذ قسم تاريخ الإنسان المتحضر إلى ثلاثة أنماط «فيها طرفان متضادان ووسط بينهما يجمع الضدين في صيغة واحدة، أحد الطرفين هو الشرق الأقصى الذي كانت السيادة في إبداعه الثقافي للحدس الصوفي، وأما الطرف المضاد فقد شهدته اليونان القديمة(ومن بعدها الغرب كله)، حيث كانت السيادة في المنجزات الفلسفية الكبرى للعقل ومنطقه في استدلال النتائج من مقدماتها... ثم جاءت الحياة الثقافية فيما نسميه بالشرق الأوسط، وسطاً يجمع الضدين في كيان واحد، فيه حدس المتصوف وفيه منطق الفيلسوف.»(٣)

(١) زكي نجيب محمود، قصة عقل، ص٨٠.
(٢) زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ص٠٦.
(٣) انظر، زكي نجيب محمود، قصة عقل، ص١٧٦.

من هذا التقسيم استخلص زكي نجيب محمود أن طرفي العقل والوجدان اجتمعا في ثقافة الشرق الأوسط بصفة عامة، والثقافة العربية في عصر ازدهارها بصفة خاصة، وهي التي تعنينا منها، لأنها هي التي ورثناها فباتت من أهم العناصر التي تتألف منها الهوية العربية في عصرها الراهن[١].

لقد وجد زكي نجيب محمود هذه الازدواجية متجلية في اللغة العربية أيضاً، بين فكر عقلي منطقي ووجداني صوفي شعري. فقال إن «اللغة العربية ذاتها قد ركبت تركيباً يحمل الجانبين معاً، فهي منطقية إلى حد بعيد إذا قيست إلى غيرها من اللغات، ثم هي مشحونة بشحنات وجدانية إلى حد بعيد كذلك.»[٢]

وبناءً على ما سبق يعتقد زكي نجيب محمود أن الثقافة العربية اجتمع فيها العقل والوجدان على نحو من التوازن الذي لم يتحقق، بالدرجة نفسها، في أية ثقافة أخرى. وأن العقل، في هذه الثقافة، كان دائماً في خدمة الوجدان. «... فلئن كان العقل والوجدان مقومان أساسيان في بنية الثقافة العربية، فلست أظنهما يقعان معاً على مستوى واحد، بل إن للحياة الوجدانية، وفيها الإيمان الديني، أولوية تجعلها أسبق، ثم يأتي نشاط العقل مجسداً في الفلسفة والعلم وما يتفرع عنهما، ليخدم الجانب الوجداني في تحقيق نوازعه.»[٣]

لم تكن وقفتنا هذه عند محاولة زكي نجيب محمود إيجاد صيغة توازن بين ثنائية العقل والوجدان، في الثقافة العربية، وقفة لذاتها، إنما رأينا أنه يقيم عليها، كما سنرى، دعوته إلى إحياء روح العقل الموجود في تراثنا، ومن ثم التمهيد لدعوته إلى الحداثة والنهضة وعلاقة الأصالة بحضارة العصر وعقلانيته، في الثقافة العربية.

لقد أدرك زكي نجيب محمود بعد تطرفه في الدعوة إلى ثقافة الغرب، ومنذ السبعينات توجه إلى البحث عن الكيفية التي نوفق بها بين تراثنا وضرورات العصر. فتساءل: ماذا نأخذ وماذا نترك من التراث كي نتيح استمراراً للأمة العربية عبر ماضيها وحاضرها؟ وماذا نأخذ وماذا نترك من ثقافة الغرب وحضارته العلمية كي نتيح لهذه الأمة أن تعيش عصرها كباقي الأمم المتحضرة؟[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٤) زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ص١٤، بتصرف.

يعتقد زكي نجيب محمود أنه لا بد من تركيبة عضوية يمتزج فيها تراثنا العربي مع عناصر العصر الراهن الذي نعيش فيه، لنكون بهذه التركيبة العضوية عرباً ومعاصرين في آن، ولكن كيف؟

لقد حاول زكي نجيب محمود، أول الأمر أن يظفر بإجابة عند من سبقوه من المفكرين العرب المحدثين، فلم يعثر عندهم بإجابة، يحس معها أنه تقطع الشك باليقين. ولكنه يقول إنه اهتدى إلى هذه الإجابة المفتاح. وهي إجابة وجد مفتاحها، في عبارة قرأها نقلاً عن «هربرت ريد» تقول: «إني على علم بأن هناك شيئاً اسمه «التراث»، ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعة من وسائل تقنية يمكن أن نأخذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة إلى ما استحدثناه من طرق جديدة»[١].

انطلاقاً من هذه العبارة، تبلورت لدى زكي نجيب محمود الإجابة المناسبة للسؤال المؤرق، ماذا نأخذ من التراث كي نتيح استمراراً للأمة العربية عبر ماضيها وحاضرها؟ وماذا نأخذ وماذا نترك من ثقافة الغرب وحضارته العلمية كي نتيح لهذه الأمة أن تعيش عصرها ؟. وهي إجابة بسيطة، عملية ونفعية «نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاً عملياً يضاف إلى الطرائق الجديدة المستحدثة، فكل طريقة للعمل اصطنعها الأقدمون وجاءت طريقة أنجح منها كان لابد من طرح القديمة ووضعها على رف الماضي الذي لا يعني به إلا المؤرخون: بعبارة أخرى إن الثقافة، ثقافة الأقدمين أو المعاصرين هي طرائق عيش، فإذا كانت عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث، وأما ما لا ينفع نفعاً عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين، وكذلك نقف الوقفة نفسها إلى ثقافة معاصرينا من أبناء أوروبا وأمريكا.»[٢]

ما دامت غايتنا هي التقدم الحضاري، كما هو مستجد في عصرنا اليوم، والتقدم أساسه العقل، فلابد من أن نبحث عن «طرائق السلوك التي يمكن نقلها عن الأسلاف العرب بحيث لا تتعارض مع طرائق السلوك التي استلزمها العلم المعاصر، والمشكلات المعاصرة»[٣].

(١) المصدر نفسه، ص ١٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠.

ولتوضيح ذلك عاد زكي نجيب محمود إلى التراث العربي الإسلامي قارئاً ومنقباً عن ما يهتدي إليه من طريقة يوفق بها بين الدين من جهة والعلم من جهة ثانية. فوجد أن «أهم جماعة لعصرنا أن يرثها في وجهة نظرها - بغض النظر عن الموضوعات التي كانت مطروحة لبحثها - أعني أن يرثها في طريقتها ومنهاجها عند النظر إلى الأمور، هي جماعة المعتزلة التي جعلت «العقل» مبدأها الأساسي كلما أشكل أمر»[١].

ومن جهة ثانية وجد أن فرقة الأشاعرة تكمن أهميتها في كونها «الجماعة الي يكّون فكرها ومواقفها الجزء الأكبر مما يعنيه القائلون بضرورة إحياء التراث في حياتنا الفكرية العصرية»[٢].

انطلاقا من هذا التعارض الموجود بين الفرقتين، المعتزلة التي تمجد «العقل» والأشاعرة الذين يمجدون «الشرع» أو «الإيمان». «كان لابد من أن يجيء من يختارلنفسه موقفاً وسطاً بين الطرفين، فكان هذا التوسط نصيب إلى الحسن الأشعري، فحاول أن يوفق بين هذه الآراء، وانتهى إلى ألا يجعل العقل كل شيئ كما أراد المعتزلة، وألا يجعل الإيمان بالنص وحرفيته كل شيئ كما أراد المتطرفون من أهل السنة وأتباع السلف ...فلماذا اذن لا نجعل المسائل مشاركة بين العقل والإيمان معاً، فللعقل ما يستطيعه من تحليل وتفسير وتأويل، وللإيمان ما تقتضيه مبادئ الدين وأصوله، مما يجاوز حدود العقل؟»[٣].

وهذا هو نفسه الموقف الذي نريد لأبناء عصرنا أن يستخلصوه من تراثهم - شكلاً لا مضموناً- وهو ألا يجعلوا بين العقل والإيمان تعارضاً، بل يجعلوا بينهما تعاوناً على الوصول إلى هدف واحد[٤].

فإذا شئنا أن يكون لنا موقف نستمده من تراثنا، فليكن هو موقف المعتزلة والأشاعرة معاً، فعن المعتزلة نأخذ طريقتهم العقلية ومن الأشاعرة نأخذ الوقوف بالعقل عند آخر حد نستطيع بلوغه، وبهذا نجعل الدين موكولاً للإيمان، ونجعل من العلم موكولاً إلى العقل، دون أن نحاول امتداد أي من الطرفين ليتدخل في شؤون الآخر[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٧-١١٨.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٩.
(٣) المصدر السابق، ص١٣٥-١٣٦.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٦.
(٥) المصدر والصفحة نفسها.

هذه بإيجاز بعض الخطوط العامة للفلسفة التي يقترحها زكي نجيب محمود لمعالجة علاقة الأصالة بالحداثة. نعني الفلسفة التي يرشحها «لما قد يصح أن يكون أساساً لفلسفة عربية» صالحة للمواءمة بين الحداثة والتراث، في ضوء شروطنا التاريخية من جهة ومقتضيات العصر الحضارية من جهة أخرى.

الخاتمة:

يجمع معظم النقاد العرب المعاصرين، على اعتبار كتابات زكي نجيب محمود، على اختلاف مواضيعها، إسهاماً متميزاً في الفكر الفلسفي العربي المعاصر، فهو إلى جانب اهتمامه وتخصصه في بعض القضايا الفلسفية المعاصرة، يعد أحد رواد التنوير والحداثة المتميزين، في الفكر العربي المعاصر. فهو، كما يقول فؤاد زكريا، من أوائل المفكرين العرب المعاصرين الذين شعروا بوجود ثقافة ذات طابع عالمي، تجتاح الجو الفكري للبلاد العربية، ومن أوائل المفكرين العرب المعاصرين الذين أدركوا ضرورة تحديد موقف إيجابي من هذه الثقافة. وكان موقفه رائداً في هذا المجال[1].

كما نلمس أيضاً البعد الإنساني في فلسفة زكي نجيب، والمكانة التي أراد أن يكون عليها الإنسان العربي في مجتمعه، وهي مكانة لم يرض أن يراها أقل من مكانة الإنسان الأوروبي في مجتمعه.

وهذا الموقف الأنسانوي في فلسفة زكي نجيب محمود هو ما جعله يدعو إلى تكريس قيمتين أساسيتين من قيم الإنسان الحديث، أو قيم الحداثة، في البلدان العربية، وهما «الحرية» و«العقل».

(١) فؤاد زكريا، زكي نجيب محمود: المشهد الأخير، مجلة العربي، عدد ٤٢٠، نوفمبر ١٩٩٣، ص ٨٦.